الفكر الاجتماعي لفوستيل دي كولانج

دراسة تحليلية للمدينة العتيقة

د . نادية صباح محمود الكبابجي(*)

المقدمة

ان نحدد نقطة البدء في التاريخ الإنساني تلك مجازفة فكرية تضعنا على مسار الفكر التطوري الذي أفل نجمه، لاعتماده في التحليل، التخمين، مما جعل الحقيقة المعروفة مشوبة بخيالات المؤرخين وإبعادنا بالنتيجة عن نقطة البدء.

إلا ان نقطة البدء من الممكن ان يسطع نورها اكثر حينما نجعلها مدار البحث والتحليل العقليين، ونسندها بالوثائق والمخطوطات التاريخية سواء كانت منها دينية أم أدبية أم... وجهد فوستيل دي كولانج يقوم على هذه الحقيقة العلمية، ويكاد من يقرأ (المدينة العتيقة)[1] يجدها بازغة بزوغ الشمس في الإشارة إلى تلك الحقيقة، فضلاً عن جانب مهم ذلك هو (اجتماعية المعلومات التي يوردها في التحليل، مما استحق الأمر معه ان نقرن الفكر الاجتماعي مع دي كولانج وكتابه.

(*) كلية الآداب / جامعة الموصل.

(1) وهي دراسة للمعتقدات والعادات الإغريقية والرومانية العتيقة.

وبعد دراسة مستفيضة للمدينة العتيقة وجدت الباحثة نفسها أمام كم هائل من التحليلات الاجتماعية لمختلف جوانب حياة وفكر الإغريق والرومان، كما وجدت جهداً سوسيولوجياً ثراً وغزيراً لدى دي كولانج يمكن ان ندرجه تحت هذه العناوين الفرعية:

1. ثراء المعرفة: يكشف كتاب المدينة العتيقة عن ثراء المعرفة الجم الذي تتحسسه من كم المعلومات الدقيقة سواءً البسيطة منها أم المعقدة في شكل تاريخي منظم مثير للانتباه.
2. منهج الكتاب: لم يشر دي كولانج إلى اعتماده على منهج ما، إلا ان قارئ كتابه يلمس منهجية قل ما نجدها في المؤلفات والكتب، ولعل أول أشكال تلك المنهجية تقسيمه الكتاب إلى أبواب رئيسة ضمنها فصول فرعية، فيما تنظرها (تقرأها) عن بعد (من فوق) تجدها شبكة معقدة في الحبكة والتنظيم والعقلانية في إيراد تطور الأسرة، فالمدينة، فالفكر.

ميزة أخرى في منهجيته تلك إيراده خلاصة نتائجه للفصل السابق في الفصل اللاحق بشكل دقيق يكاد يغني عن وجود الفصل (أي السابق)، ومن ثم القيام بتحليل متغيرات الفصل اللاحق على أساس تلك الخلاصة، والقيام بإجراء المقارنة وترجيح كفة العقلانية في التحليل.

3. تغطية أبوابه وفصوله جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية التي قد تضمنت الجوانب الدينية والاقتصادية بشكل العقل من المراحل الأولى لوجود الأسرة التي قامت بتشكيل المدينة أو حتى وجود المدينة الشاملة زمن الدولة الرومانية. وبأسلوب تكاد لا تستطيع ان تميز لحظة انتقاله من مرحلة إلى أخرى لرصانة الأسلوب ودقة الكلمات.

وقد وجدت الباحثة نفسها في متعة القراءة ما أنساها الهدف من القراءة إلا وهو دراسة (الفكر الاجتماعي لفوستيل دي كولانج) فعادت مرة أخرى لتقرأ من جديد وفي ضوء المنهج العلمي، فوجدت فوستيل دي كولانج قد أعطى الثقل الأساسي الذي كان واضحاً في بداية الكتاب كل الوضوح، إلا وهو (الجانب الديني)، وقد أورد من الأدلة التي يبقيها العقل ما يجعلنا نعتقد بصحة الأساس الذي اعتمد عليه، فكان الدين، الأساس في إيجاد الأسرة والملكية، والقانون، والمواطنة، وهو هذا الأساس الذي يميز أبناء المدينة عمن سواهم، لكنه لا يجزم باطلاقية هذا الأساس مع التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمدينة، فنراه يشير إلى أساس آخر في القياس ذلك هو الثروة التي حلت محل الدين في المراحل اللاحقة من تطور المدينة.

إلى جانب ذلك وتماشياً مع منهجيته المضمرة يشير دي كولانج إلى حدوث أربع ثورات كانت الحوادث الأكثر وضوحاً في حدوث الانقلابات الاجتماعية في مجمل حياة الإغريق والرومان.

ومن اجل ان تكون الصورة واضحة لهكذا معلومات متراكمة حاولت الباحثة ان تعتمد على تشخيص ملامح فكرة من خلال اعتماد تبريز المظاهر التي انطوى عليها كتاب المدينة العتيقة في قسم أول تحت عنوان (مظاهر الحياة العامة من أسرة وزواج وملكية ومدينة و.....الخ)، وفي قسم ثاني تحت عنوان (ثورات التغير الاجتماعي)، وهي الثورات الأربع التي أشار إليها دي كولانج.

وكان لتسمية القسم الثاني بـ(ثورات التغير الاجتماعي) لها ما يبررها، ومن بين المبررات هو الإشارة الواضحة في فصول فرعية في المدينة العتيقة إلى مظاهر التغير ووجود كلمة أو مصطلح التغير الاجتماعي تقريباً في كل مجموعة

اسطر ضمن هذه الفصول الفرعية بشكل يحفز الباحث الاجتماعي إلى تصور شكل ودرجة التغير.

من هنا يمكن ان نحدد موضوع الدراسة بأنها دراسة الفكر الاجتماعي لفوستيل دي كولانج في المدينة العتيقة، معتمدين منهج التحليل الاجتماعي.

وفي ضوء ما تقدم يمكن ان نحدد هدف هذه الدراسة، بانها تسعى إلى تحديد وتوضيح معالم الفكر الاجتماعي لفوستيل دي كولانج في كتاب المدينة العتيقة، وهو فكر يسترعي الانتباه مما يجعل دراسته هدفا مهما من أهداف كل من يقرأ الكتاب.

كما تتجلى أهمية الموضوع من كونه استعراضاً لتطورات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والدينية للإغريق والرومان، وهو يمكن ان يكون الأساس العلمي الذي يعطينا تصوراً عاماً ليس عن تطور الحياة الاجتماعية للإغريق والرومان حسب، وانما صورة عامة من نمو المدينة بشكل عام وهذا مما يعطي قيمة أخرى في جانب الدراسات الحضرية.

القسم الأول

مظاهر الحياة العامة

الأسرة العتيقة (القديمة)

يقول دي كولانج (كان المواطن خاضعا للمدينة في كل شيء، وبدون أدنى تحفظ كان لها بأكمله)[2]

وليس هذا القول مجرد قول وانما جاء من حقيقة لها وجودها الشكلي والواقعي تلك هي الأسرة العتيقة، التي كانت النواة في تشكيل المدينة التي لا يختلف فكرها عن فكرة الأسرة، خاصة ان هذه حقيقة حرص الإغريق عليها إلى جانب ما صاحب هذه الحقيقة من تطور فالمدينة كانت حلفا من مجموعات تكونت قبلها، (أي مجموعة أسر) وان المجتمع لم يتطور إلا متدرجاً مع اتساع الديانة [3] التي خرجت من إطارها المنزلي إلى إطارها المديني.

لقد كان الدين المنزلي هو المحدد الاجتماعي والحضاري الذي تنبني عليه الحوادث الاجتماعية، وأول تلك الحوادث هي الأسرة العتيقة (هي رابطة دينية اكثر منها رابطة طبيعية)[4]، وغدت الأسرة في ضوء المفهوم الديني الضيق في مراحله الأولى، أسرة دينية، لها شعائرها وفكرها الديني، لأنها هي النواة، وما يوجد جانبها من اسر لا تتعدى أصابع اليد في العدد هي في ذات الوقت نواة. فكانت الأسرة تعيش حقيقة كونها الأصل والنواة، بمعزل عن غيرها، وكانت الديانة المنزلية

(2) فوستيل دي كولانج / المدينة العتيقة / ترجمة عباس بيومي بك / مكتبة النهضة المصرية / القاهرة دون تاريخ ص 308.

(3) نفس المصدر / ص 173.

(4) نفس المصدر / ص 52.

(تعزل كل أسرة عن جميع الأسرات [5] الأخرى سواء في الحياة أو في الممات.... كان للمنازل نوع من السدر العازل)[6].

وقد امتازت الأسرة العتيقة بضيق الأفق في تصورها الديني، إذ لم يكن مفهوم الإله المالك لكل شيء من وجود، إنما ما تملكه الأسرة هو ذاته ما يملكه الإله، من هنا كانت فكرة الملكية الخاصة في جوهر الديانة المنزلية، (فكان لكل أسرة موقدها وأسلافها ولا يمكن لسواها ان يعبد هذه الآلهة، وهي أيضا لا تحمي سواها فقد كانت ملكا لها)[7].

وهي من اجل تحقيق فكرة التكافل الاجتماعي وهو يتمثل هنا بحالة تبني بعض الأسر في حالات خاصة بعض الأطفال أو سواهم فانها في ذات الوقت تلجأ إلى الدين لتبرير عملها (لذلك كان يعمل التبني باحتفال مقدس يلوح انه كان شبيهاً بعض الشبه بالاحتفال الذي كان يشهر به مولد الابن) [8].

لما كان الدين الأساس الأول الذي بموجبه تقاس متغيرات الحياة الاجتماعية، فان الأمر يعني خروج أي من المتغيرات عن هذه الأساس خروج عن الوضع الطبيعي. ومن هنا. فقد غدت كل أسرة تفقد الأساس الديني فانها تفقد مفهوم المواطنة، ولا شك انه كانت هناك اسر تفقد هذه الصفة لسبب أو لآخر كالنفي الذي يصيب بعض الأسر لخروجها عن التقاليد والعادات....الخ.... وقد حرص الإغريق والرومان، (وهو ما سنبحثه لاحقاً) على إخراج هؤلاء من دائرة الشعب، وأعطوهم

(5) هكذا استخدمها دي كولانج وهي جمع كلمة أسرة، وسيجدها القارئ داخل أقواس التنصيص فقط.

(6) نفس المصدر / ص 83 ـ 84.

(7) نفس المصدر / ص 79.

(8) فوستيل دي كولانج / المدينة العتيقة / المصدر السابق ص 70.

اسماً آخر هو (السوقة)، فكانوا (يأخذون عليهم انهم قوم لا دين لهم ولا أسرة) [9] وبأنهم (ليس لهم أب، أي انهم يبحثون عبثاً في سلسلة أجدادهم دون ان يجدوا إطلاقاً رئيساً لأسرة دينية..... لم يكن لهم غير الأسرة الطبيعية)[10].

وقد كان ذلك من بين أهم العوامل التي قسمت الشعب إلى قسمين طيلة خمسة قرون. من القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن الثاني قبل الميلاد حينما انتصر الشعب أي السوقة تحت ما يعرف في التاريخ الإغريقي والروماني بحكم العامة[11].

الزواج

حرصت الثقافة (الحضارة) الإغريقي والرومانية على أقران الاستمرار الحضاري والجنسي بالدين، حيث انه شكل الأساس الأول في تشكيل مجمل معالم الحياة الاجتماعية و اللاستمرار انما يأتي في الخروج عن الديانة ومن هنا اعتقدوا (ان الأسرة تنطفئ لهي عبادة تموت) [12]. فجاء حرصهم على استمرار الأسرة وضمن الدين أيضا فأطلقوا على الزواج كلمات تدل على عمل ديني من اجل إسباغ الصفة الشرعية على عملهم، ولأن المنزل كان محور الفكر والوجود فقد كان يتم الزواج (في المنزل، وكان الإله المنزلي)[13] هو الذي يشرف عليه.

---

(9) نفس المصدر / ص 326.

(10) نفس المصدر / ص 328.

(11) عادل نجم عبد / عبدالمنعم رشاد محمد / اليونان والرومان ـ دراسة في التاريخ والحضارة / وزارة التعليم والبحث العلمي/ جامعة الموصل/ 1993ص 353 ـ 355.

(12) فوستيل دي كولانج / المصدر السابق ص 63.

(13) نفس المصدر ص 55.

لقد كان الزواج عمل ديني يحرص الأفراد على الالتزام بطقوسه تحقيقا لرضا الإله المنزلي، ورئيس الأسرة، من اجل تامين استمرار الحياة بشقيها الديني والاجتماعي (كان اثر الزواج في نظر الديانة والقوانين هو ربط كائنين في نفس الديانة المنزلية لكي يولد منهما ثالث جدير باستمرار هذه العبادة على يديه)[14].

والى جانب تامين المنحى الروحي لموضوع الزواج، عمد الإغريق والرومان إلى الجانب الشكلي فصبغوه أيضا بالدين، وشكلية الزواج هنا تتمثل بالقانون (وقد كان القانون الروماني يسمح بسهولة بحل الزواج الذي تم بطريق الشراء أو المتعة، لكن حل الزواج الديني كان شديد الصعوبة فكان لابد لهذا الانفصام من حفلة مقدسة، إذ أن الدين وحده يستطيع ان يفرق ما جمعه الدين)[15]. وبذلك تتحقق تكاملية الحياة بشقيها الديني (المحور الرئيسي) والقانوني العاكس لنمطية الاعتقاد، ثم الشق الثاني الجانب السلوكي الذي يتمثل الشقين السابقين في نمط المعيشة لجوانب متغيرات الحياة اليومية.

والحياة كحدث طبيعي أخذت طريقها للنمو، وأخذت الأسرة النواة، وبفعل تنظيمها الديني المتمثل بالزواج، أخذت بالتعدد، فنشأ المجتمع من طريقين هما:

الأول: هو تزايد أعداد الأسرة الواحدة نفسها حتى تكاد (تصل إلى تكوين جماعة على جانب كبير من الاتساع ولها رئيسها الوراثي، وذلك بفضل ديانتها التي

(14) نفس المصدر ص 65.

(15) نفس المصدر ص 61.

كانت تحفظ وحدتها، وبفضل قانونها الخاص الذي جعلها غير قابلة للقسمة)[16]

الثاني: فهو نظام الولاء من قبل خدم الأسرة الرئيسة، إلى حد أن تكون (في باطن الأسرة الكبيرة عدد معين من الأسرات الصغيرة) [17] حتى شكل نظام الولاء في مراحل لاحقة من تطور الحياة، نظاماً معترفاً به في كل مكان من بلاد الإغريق والرومان.

وقد نحج الزواج من تحقيق هدفه الأساس، إلا وهو تأمين استمرار الأسرة المقدسة، وحفظ للمجتمع تماسكه الذي انعكس على تكوين المجتمع فيما بعد، ومن هنا نجد أن الأسرة الكبيرة استطاعت أن تؤلف (فصيلة أو قبيلة) كانت بنية المجتمع الإغريقي والروماني طيلة وجودهما بدأ من القرن السابع قبل الميلاد وحتى نهاية القرن الرابع بعد الميلاد حينما توسعت الإمبراطورية الرومانية فأخذت تؤمن بوجود الدولة الشاملة الذي يتعدى دولة المدينة.

الملكية والقانون والمواطنة

مركز الحياة والاجتماع حسب الديانة المنزلية، المنزل، والأسرة، ولما كان للمنزل اله وموقد يحكم على جميع الأسرة، فانه لا شك يحدد ما تملكه الأسرة، (فالديانة هي التي أقامت حق التملك لدى معظم الشعوب البدائية) [18] إلى حد (انه لم يكن في استطاعة الأسرة أن تتنازل عن ملكها إلا إذا تنازلت عن دينها)[19] وقد فرضت الديانة المنزلية- بسبب محدوديتها، وافقها الضيق الذي لم

(16) فوستيل دي كولانج / المصدر السابق / ص 149.

(17) نفس المصدر / ص 147.

(18) نفس المصدر / ص 85.

(19) نفس المصدر / ص 89.

يسمح أن تكون في مدى ابعد من الذي قررته ضمن إطار المنزل – فكرها على صعيد المكان في ذات الوقت. فجعلت من المساحة الجغرافية التي يشغلها المنزل مساحة معزولة، وقد بالغ الإغريق والرومان في التأكيد على هذا الجانب حتى وصل الأمر انه (لا يجوز لمسكنين ان يتماسا، فالحائط المشترك يعتبر شيئاً مستحيلاً إذ لا يمكن ان يكون نفس الجذر مشتركاً بين منزلين) [20]، وقد كان لهذا الفكر من تأثير مباشر على السلوك الاجتماعي. لان الأمر ليس مجرد قضية نقاشية أو حتى سلوك معمول به انما الأمر متعلق بالاعتقاد ويمكن أن نقول بأن كثيراً من المسائل تحتمل النقاش، ولكن حين يصل الأمر إلى الاعتقاد، فأنه ليس هناك مجال للنقاش فالديانة المنزلية التي كان لها سلطان على أرواحهم هي التي أوحت إليهم بذلك، وما أوحت به انما كان اعتقاداً، ومن هنا كان من الصعب مخالفة الاعتقاد.

ومثلما كونت الديانة المنزلية الكثير من مبادئ السلوك فانها ذاتها (التي كونت الملكية عندهم) [21] وشكل الملكية كما أسلفنا محدود ضمن إطار المنزل. وقد انسحب هذا الاعتقاد على الفكر الإغريقي والروماني اللاحق فنجد ان الأمر قد انسحب إلى الفكر الاجتماعي للمدينة التي تشكلت عن اتحاد مجموعة من الأسر، فاصبح (لكل مدينة حول منطقتها خط من الحدود المقدسة وكان هو أفق ديانتها القومية وآلهتها وفيما وراء هذه الحدود كانت تتحكم آلهة أخرى وتقوم عبادة أخرى)[22].

---

(20) نفس المصدر / ص 81.

(21) فوستيل دي كولانج / المصدر السابق / ص 86.

(22) نفس المصدر / ص 277.

ان شدة الإيمان بالديانة لم يكن لينسحب على الملكية وحسب، وانما تعدتها إلى مفاصل الحياة الاجتماعية ومن جملة هذه المفاصل التي كان لها الأثر الكبير على الحياة الاجتماعية الاعتقاد بالقانون، خاصة وأن الإغريق والرومان قد جعلوا من القانون منظم أساسي لتنظيم الاجتماعي حتى اعتقدوا انه (من غير المستطاع أن يكون المرء حبراً صالحاً إذا كان لا يعرف القانون، يقابل هذا أنه لم يكن من المستطاع أن يعرف القانون إذا كان لا يعرف الديانة) [23] فحددت بذلك الديانة صلاح الفرد بالدين، وتعدت ذلك الصلاح إلى قضاء أوسع من المعرفة بالقانون إلى أقران مفهوم المواطنة بالديانة فمن خلال مساهمة الفرد بالعبادة كان الفرد (يستمد كل حقوقه المدنية والسياسية فأن تنازل عن العبادة فقد تنازل عن الحقوق... فإذا أريد تحديد المواطن في الأزمنة العتيقة بأهم خصائصه وجب القول انه الرجل الذي يحوز ديانة المدينة)[24].

---

(23) نفس المصدر / ص 255.

(24) نفس المصدر / ص 263.

القسم الثاني

ثورات التغير الاجتماعي

تمهيد

لقد رسم الدين الخارطة الاجتماعية للسلوك، وتوصل فوستيل دي كولانج إلى ان الحياة الاجتماعية للإغريق والرومان، كانت قائمة على أساس طبقي فهناك طبقة البطارقة والموالي، وهم رؤساء الأسر وأعضاءها وخدمهم (مواليهم) وهي طبقة الشعب التي تتمتع بالحقوق الدينية والمدنية والسياسية. وبالمقابل طبقة السوقة، وهم الذين ليس لهم دين أو حقوق، كما لا ينطبق عليهم القانون، ويسكنون خارج المدينة وهم من المهاجرين أو الذين لم يرضى عنهم البطارقة. ولا تنطبق عليهم لفظة الشعب، وفي ذات الوقت تنقسم الطبقة الأولى أي الأسر العتيقة التي تعيش في المدينة المقدسة إلى طبقتين (متفاوتتي الدرجة تحت سلطة رئيس واحد.... الأفراد الأحرار بطبيعتهم والخدم أو الموالي وهم أدنى درجة ولكن مساهمتهم في العبادة المنزلية قربتهم من الرئيس)[25].

وكان من نتائج هذا الوضع ان نشأ نمط معين ميز كل طرف، وكان الطرفان يعيش كل منهما بمفرده، اما على صعيد الواقع فقد كان الوضع مختلف إذ ان السوقة كانوا على ارتباط دائم بالبطارقة، فهم يعلمون لديهم. ويزرعون أرضهم، كما وانهم يشكلون طبقة الجنود التي يعتمدون عليها في الحرب.

من هنا كانت الطبقتان تشكلان وجوداً واحد، وما الاختلاف إلا في كون السوقة ليس لهم حقوق سياسية أو مدنية أو قانونية ينظمهم. وهو في الحقيقة

(25) فوستيل دي كولانج / المصدر السابق / ص 357.

اختلاف شكلي، لأنه كان بالفعل للسوقة نظامها وقانونها غير المعترف به من قبل البطارقة. وكانت مدينة السوقة تشهد التطور والتقدم قرناً بعد قرن، وأخذت تدخل المدينة المقدسة وتحقق بعض النجاحات، وحاولت ان تغير من الأوضاع القديمة والثابتة في المدينة المقدسة، بما يخدمها وقد نجحت بالفعل في نضالها الطبقي الذي استمر عدة قرون.

لقد حدد فوستيل دي كولانج أربع ثورات رئيسية ساهمت في تحقيق التغير الاجتماعي للمدينة العتيقة الإغريقية والرومانية سيتم التعرف عليها.

الثورة الأولى انتزاع السلطة السياسية من الملوك

ان الهيئة السياسية للمدينة العتيقة أخذت شكلاً ملكياً، واستطاع الملك ان يفرض سلطانه على المدينة بواسطة الدين-في ظل سيطرة الدين على جميع مفاصل الحياة – فقد كان (الملك هو الرجل الذي يتلو الدعاء ويقدم القربان، وأخيرا كان هو القادر بمقتضى الحق الموروث على ان يجلب للمدينة حماية الآلهة)[26] وعزز دور الملك الديني دوره السياسي فقرض إرادته على رؤساء الأسر. وكان من الطبيعي ان تأتي سلطته السياسية من ذلك الفرض، طالما كان رؤساء الأسر هم المسيطرون الفعليون على أسرهم المشكلة مع بعضها البعض المدينة المقدسة حيث انه لم تكن المدينة (خلال أربعة قرون غير تحالف من رؤساء الأسرات إلى قوياء) [27] وقد كان من هذا الوضع على صعيد الواقع قوتان الأولى قوة الملك حيث تقتضي

(26) فوستيل دي كولانج / المصدر السابق / ص 333.

(27) نفس المصدر / ص 348.

(السلطة) الطاعة له، والثانية قوة رؤساء الأسر، وهم وبحسب الوضع الاجتماعي السائد كانوا ذوي سلطات كبيرة.

وقد ترتب على وجود هاتين القوتين صراع اجتماعي، لأن كل طرف منهما يعمل على أن يكون صاحب السلطة (فقد أراد الملوك ان يكونوا أقوياء وأراد الآباء إلا يكونوا كذلك فنشب في جميع المدن نزاع بين السراة وبين الملك)[28]. وكان لابد لهذا من قوة تسند كل طرف من اجل فرض سيطرته على الآخر، ولما كان الملوك لا يستطعون ان يستميلوا أبناء الأسر، بسبب الديانة المنزلية التي تستوجب طاعة الأبناء للآباء، فانهم بحثوا عن سند آخر تمثل (بالموالي والسوقة) [29] من خلال إغراءهم بالتحرر [30]، وكان لهذا الإغراء أثره اللاحق فيما بعد حينما استطاع هؤلاء ان يصلوا إلى الحكم كما سنبحثه لاحقاً، وعارضوا (الملوك) (طبقة البطارقة التي كانت منظمة تنظيماً قوياً)[31].

وبسبب قوة الاعتقاد الديني كان من الصعب أن تتم الغلبة للملوك خاصة وأن أرباب الأسر لهم السيطرة المطلقة على أفرادهم، فخسر الملوك النزاع مع طبقة السراة. واستطاع الآباء أن يحكموا وكأنهم الملوك في جميع المدن الإغريقية والرومانية فتحولت الهيئة السياسية من شكلها الملكي إلى شكل جمهوري (ومارس الآباء كل بدوره وظائف الملك)[32].

---

(28) نفس المصدر / ص 333.

(29) نفس المصدر / ص 344.

(30) نفس المصدر / ص 381.

(31) نفس المصدر / ص 344.

(32) فوستيل دي كولانج / مصدر سابق/ ص 342.

ان هذه الثورة التي حدثت بصيغ مختلفة وفي أوقات ليست واحدة وان كان ضمن نفس المدة الزمنية التي حدثت فيها الثورة، كان لها بعدها الاجتماعي الخطير على التنظيم الاجتماعي فهي بمثابة تغير اجتماعي كبير ليس في التركيبة السياسية فقط وانما في التركيبة الاجتماعية وذلك بسبب ان الملك له سلطة دينية والثورة عليه تعني الثورة على السلطة الدينية، وكان السراة (أرباب الأسرة) أرادوا أن تكون ثورة على جزء من سيطرة الدين، وتناسوا ان التغير يدب في الاعتقاد فانه لاشك سيدب فيه مرة أخرى في ظل ظروف اجتماعية أخرى. ولذلك فقد حاول الآباء (أو رؤساء الأسر أو السراة) أن يحافظوا على السلطة الدينية للملك بعد أن انتصروا عليه سياسياً وعسكرياً، (فلم يمسوا سلطة الملك الكهنوتية) [33] من أجل المحافظة على الوضع الاجتماعي خدمة لمصالحهم... لقد بدأ السراة بالثورة الأولى للتغير الاجتماعي ولم يكونوا يتصورون انه ستترتب ثورات لاحقة، ستغير الوضع السياسي الذي ثاروا من اجل تشكيله وفق مفاهيمهم.

الثورة الثانية تغير كيان الأسرة وتمزق الفصيلة

لقد كان شكل النظام الاجتماعي السائد أثناء الفترة التي سبقت الثورة الأولى، قائما على أساس تسلط رؤساء الأسر، وجاء الملوك فيما تأسست المدينة ليزاحموهم السلطة، فقامت الثورة التي (قلبت النظام الملكي، الشكل الخارجي للحكومة، اكثر مما غيرت كيان المجتمع. انها لم تكن من عمل الطبقات الدنيا التي كانت من مصلحتها أن تهدم الأنظمة القديمة، بل ضمن عمل السراة التي كانت تريد المحافظة

(33) نفس المصدر / ص 333.

عليها، فهي لم تعمل إذن لتغيير نظام الأسرة العتيق بل للمحافظة عليه) [34]، وهي في سعيها هذا حققت استمرار الديانة المنزلية من جهة، وأهملت الكثير من السوقة خاصة (الطبقات الدنيا) بانها أعادت المجهد والحياة للأنظمة المقدسة، وبانها غيرت شكل الحكومة التي حاولت أن تتلاعب بالمقدسات من جهة ثانية.

أما على صعيد الواقع فقد بقي السراة هم المستفيدون من هذه الثورة ويبدو أن تردي الأوضاع الاجتماعية قد دفع السراة من باب المصلحة الخاصة بهم (بثورة سياسية ليحولوا دون ثورة اجتماعية ومنزلية) [35] كانت محتمة، استطاعت أن تستمر متجسدة بشكل غير منظور من خلال تردي الأوضاع الاجتماعية.

ومن باب آخر تغير المكان الجغرافي للأسر، عمل بصورة غير مباشرة على زعزعة تركيب الأسرة ملامح تغير الأسرة تبزغ في المدينة عندما اتحدت أو تجمعت الأسر المقدسة حيث أدى ذلك إلى ضعف (سلطة الرئيس القديم "رئيس الأسرة" إذ انه في نفس الوقت الذي هو فيه رئيسا ذو سيادة في بيته كان أيضا عضوا في جماعة، وتضطره بعض المصالح العامة إلى تضحيات وتأمره بعض القوانين العامة بالطاعة)[36] فادى الأمر إلى تقصيره على مستوى البيت أو أسرته ومما فسح المجال لأحداث التغير الاجتماعي، فضعف إذ ذاك (الأسرة السرية والكهنوتية القديمة... وأدى تحرر معظم الموالي إلى فقدان الجزء الأكبر من رعاياها)[37]. فتشكلت إذ ذاك طبقات اجتماعية داخل المدينة خاصة الموالي الذين حرصوا على التخلص من ربقة تسلط رئيس الأسرة العتيقة، ومن ناقلة القول انه

(34) فوستيل دي كولانج/ المصدر السابق/ ص 352.

(35) نفس المصدر / ص 352.

(36) نفس المصدر / ص 353.

(37) نفس المصدر / ص 374.

كان من نتيجة الأوضاع السابقة (الثورة الأولى) رغبة السراة في تعزيز مكانتهم، وتفريطهم في ذات الوقت أو التقصير بأداء أدوارهم تجاه أسرهم لانشغالهم بأدوارهم الجديدة داخل المدينة عقب انتصارهم بالثورة، مقابل محاولة أبناء أعادت في التمرد على قيود أسرهم العتيقة فاخذوا يتململوا من أوضاعهم فحدثت إذ ذاك الثورة على أوضاعهم، فكانت (حرباً منزلية في كل قرية وفي كل منزل يتوارثونها من أب لأبن) [38] حتى تمت الغلبة أخيرا للمستجد من الأنظمة بمعنى آخر حتى اكتملت الثورة وتغيرت الأسرة العتيقة وظهرت اسر جديدة لها مفاهيمها المدينية.

لقد فرضت الأنظمة الجديدة (تغير كيان الأسرة) ان يكون هناك تنظيم اجتماعي يحقق وجهين الأول اخذ الوظيفة السابقة للأسرة العتيقة والثاني تنظيم اجتماعي يعد استجابة للمتغير الأول. وكان هذا التنظيم الاجتماعي هو الفصيلة. وهو كما أوضحنا سابقا نشأ في المدينة ليكون رباطاً بين مجموعة أعادت داخلها، فكان يؤدي دورين، التقليدي في المحافظة على الروابط الأسرية، ودوره المديني كاستجابة لمتغيرات حياة المدينة. فعمل أبناء المدينة على التوفيق (بين نظام الفصيلة وبين نظام المدينة لكنهما كانا في الواقع نظامين متضادين لا أمل في اتحادهما الأولى الأبد) [39] خاصة وان نظام الفصيلة من مخالفات النظام الاجتماعي السابق وانسحب التغير الذي طرأ على الأسرة الأولى نظام الفصيلة.

ومما عزز التغير الذي حدث في نظام الفصيلة هو إلغاء الحدود المقدسة إلى ما يسمى بالتخوم الذي (انتزع الأرض من الديانة ليعطيها للعمل، ومن المحتمل ان

(38) فوستيل دي كولانج / المصدر السابق / ص 365.

(39) نفس المصدر / ص 352.

يكون ذلك التحرير هو الذي سماه معاصرو صولون باسم إلقاء الحمل) [40]، أي التحرر من المسؤولية الاجتماعية التي فرضها الالتزام تجاه الأسرة إلى الفصيلة. فحدث التغير الاجتماعي الآخر ألا وهو الخروج من ربقة الفصيلة الأولى نطاق أرحب ألا وهو العمل، وقد مهدت هذه الثورة للثورة الثالثة حيث أدت (الثورة الثانية) الأولى دخول الطبقات الدنيا الأولى المدينة لتفكك العوازل، الأسرة، الفصيلة، والتخوم وهنا لابد من الإشارة الأولى ان التفكك الاجتماعي، ليس إلغاء للحواجز بقدر ما هو تغير اجتماعي، كما انه ليس تغيراً اجتماعي بالمعنى الحديث لمفهوم التغير بقدر ما هو تغير بسيط إذا ما قارناه بمفهوم التغير الاجتماعي الحديث، إلا انه تغير اجتماعي كبير مقارنة بطبيعة الحياة الاجتماعية للمدينة الإغريقية والرومانية آنذاك.

الثورة الثالثة السوقة في المدينة

أدت التغيرات الاجتماعية التي أصابت نظامي الأسرة العتيقة والفصيلة ان تحطمت الحواجز الاجتماعية التي فصلت العامة (السوقة) عن الأسر المقدسة، فلم تعد لطبقة (البطارقة غير اسم ذكرى واختفت المبادئ القديمة التي قامت عليها المدينة الرومانية) [41] وهذا يعني ان السوقة استطاعت ان تحقق تقدم اجتماعي سمح لها ان تحرز نصر سياسي، ومما سمح لطبقة السوقة فضلا عن التغيرات السابقة هو ما صاحب التغيرات السابقة من تغير سياسي. فبعد ان كانت السياسة تجري ضمن إطار الدين وتقاليد البطارقة أصبحت وظيفة الحكومة

(40) نفس المصدر / ص 368.

(41) فوستيل دي كولانج/ المصدر السابق/ ص 416.

الجوهرية (المحافظة على أي النظام والسلم في الداخل، والكرامة والسلطة في الخارج)[42].

ولأنه كانت صفة الملوك كما أوضحنا القيام بالنشاط الديني فقد احترم لقب الملك على أساس هذا الاعتبار الديني، وبقي للملك، اما الوظيفة السياسية فقد انتقلت إلى أشخاص آخرين اتخذوا لقباً جديداً أسموه (الطاغي – مفرد طغاة-) ولقد كانت هذه الوظيفة الجديدة (تدل على شيء جديد جداً بين الناس على سلطة لم تكن مشتقة من العبادة) [43]. وانما سلطة مدنية تحمل طابع سياسي، وفحوها القوة.

وقد أدى ذلك إلى ان تنعزل السياسة عن الدين، واصبح المخالف للحكومة لا يتلقى عقاباً دينياً كما في السابق وانما عقاباً يعتمد القوة، فسيادة جميع الطغاة كانت تقوم على قاعدة الإطاحة (بالرؤوس العالية وأن يضربوا السراة بالاعتماد في ذلك على الشعب)[44]، وهذا الأمر يعني أن الطغاة كانوا يعتمدون على الطبقات الدنيا خاصة بعد ما تغير مفهوم الشعب الذي توسع ليشمل السوقة أيضا. ومما ساهم في تعزيز هذا النهج (مجموعة قوانين صولون التي تعد ثورة اجتماعية كبيرة وأول شيء يلاحظ فيها ان القوانين كانت واحدة للجميع) [45]. فعلى سبيل المثال القوانين الخاصة بالسراة ذات الصبغة الدينية كان يُحرم الاطلاع عليها من قبل السوقة أو الاستناد عليها، عملت السوقة على (ان تمحوها فلم تقتصر على طلب تحرير

(42) نفس المصدر / ص 431.

(43) نفس المصدر / ص 375.

(44) نفس المصدر / ص 377.

(45) نفس المصدر / ص 425.

القوانين كتابه وجعلها علانية، بل طلبت ان تكون هناك قوانين تنطبق على البطارقة وعليها هي بالسواء)[46].

لقد أدت الثورة الثالثة إلى تغير اجتماعي عملاق فضلاً عن التغير الذي صاحب التغير السياسي، ألا وهو السماح للسوقة بان تصبح غنية، بل انه قد زاد عدد أثرياء طبقة السوقة، واستطاعوا ان يقيموا علاقات حتى مصاهرة مع طبقة البطارقة، ويمكن ان نقول ان طبقة الأغنياء ضمن طبقة السوقة لم تكن (ترضى الفتن [الصراع بين السراة والسوقة] ولابد انها كانت تخشاها، والتي كانت تخسر كثيراً إذا سقطت روما وتكسب كثيراً إذا ارتفعت، هذه الطبقة كانت واسطة طبيعية بين الطبقتين العدوتين)[47] السراة والسوقة.

من هنا يمكن القول ان ثمرة الثورة الثالثة تمثلت بانها (جعلت الثروة لوقت ما مبدأ للتنظيم الاجتماعي)[48] كما تمثلت بخروج طبقة السوقة من قيود التسلط بل وحتى توليهم نظام الحكومة... بدأ من القرن الثاني قبل الميلاد.

الثورة الرابعة استقرار حكم العامة وتكوين سراة من الأثرياء

لقد كان للتغيرات السياسية التي حدثت أبان الثورة الثالثة، انعكاسات جمة على الفكر الاجتماعي الإغريقي والروماني حتى تهيئت الظروف الاجتماعية لقيام الثورة الرابعة، ويمكن القول بان الثورة الرابعة تمثلت بظهور وتكامل نخبة الأثرياء ضمن طبقة السوقة، حيث إذ عنت العامة (لقيادة هذه النخبة التي كانت

(46) فوستيل دي كولانج / المصدر السابق / ص 409.

(47) نفس المصدر / ص 407.

(48) نفس المصدر / ص 378.

فخورة بوجودها فيها) [49]، خاصة وان هذه النخبة زاد عددها أولا، وزاد عدد المناصب التي تقلدها أبناء السوقة ثانياً، وقد رَغبَّها ذلك في انفرادها بال حكم، حتى انتهى بها الأمر إلى استقرارها فيه.

ومن اجل تعزيز دورها السياسي فانها حاولت ان تجعل من الثروة مقياس التمييز في سبيل القضاء على أي أمل لتمييز الاجتماعي قائم على أساس الاعتبار الاجتماعي. (فأصبحت الحقوق السياسية التي كانت ملازمة للمولد في الفترة السابقة، ملازمة للثروة)[50]. ولتحقيق هذا المقياس فانها عملت على التخلص من قيود الارتباط الاجتماعي القديم الذي يفرض ولاءً اجتماعياً فدفعت المجتمع في اتجاه جديد تمثل (بالعمل بجميع أشكاله ... فكان ذلك موافقاً لتقديم الصناعة والتجارة، كما كان موافقاً للتقدم العقلي)[51].

ان تحقيق السياسة الجديدة لا يكون إلا من خلال خلق الولاء للدولة وربط الفرد كلياً بهذه الدولة حتى تصبح مصلحته ومصلحة لدولة شيء واحد، وبما ان الدولة ذات تركيب سياسي جمهوري (تمثل بحكومة الطغاة وحتى حكومة السراة) فان الأمر يعني الولاء للهيئة السياسية وليس الولاء لشخص أو قبيلة، وفي هذا الخصوص يقول دي كولانج (المصالح الفردية مرتبة بصالح الدولة ارتباطاً لا انفصام له، لا يستطيع الإنسان ان يكون غير مكترث، ولا نزق) [52]، وبذلك فقد نجحت الثورة الرابعة بتحقيق اكبر إنجاز لها بعد أن بلورته بشكل نهائي،

(49) فوستيل دي كولانج / المصدر السابق / ص 378.

(50) نفس المصدر / ص 435.

(51) نفس المصدر / ص 437.

(52) نفس المصدر / ص 449.

(فلم يبقى عنصر آخر للتمييز الاجتماعي غير الثروة. طلبوا إلى الثورة أن تعين مراتب الناس)[53].

لا يعني ذلك ان الحياة الاجتماعية للإغريق والرومان بعد التغيرات الاجتماعية أصبحت مثالية، لان الصراع الاجتماعي أو التنافس يظل مستمراً. ولا يتغير منه إلا الشكل الخارجي، فعلى سبيل المثال اخذ الصراع شكلاً جديداً في ظل الثورات الأربع فإذا لم يعد هنا (مكان للقتال من اجل المبادئ والحقوق حارب الناس بعضهم بعضاً من اجل المنافع)[54].

وتشكل في ضوء المفاهيم الجديدة سراة جدد، تحكمهم المنافع وتسيرهم الرغبة في تضخيم ثروتهم إلى العمل وقد دفعهم ذلك إلى التضامن مع بعضهم البعض من اجل المحافظة على كيانهم الجديد. من خلال دعم النظام السياسي السائد.

وقد بقي الحال على هذه الصورة حتى انتهى نظام دولة المدينة وقامت الدولة الشاملة متمثلة بفتوحات الدولة الرومانية ومن ثم تغيرت المفاهيم التي أصبحت قديمة لتحل محلها مفاهيم جديدة.

---

(53) نفس المصدر / ص 334.

(54) فوستيل دي كولانج / المصدر السابق / ص 451.

الخاتمة

جاءت الدراسة لتعين الفكر الاجتماعي لفوستيل دي كولانج، في كتابه المدينة العتيقة، وهو دراسة للمعتقدات الدينية للمدينة الإغريقية والرومانية.

وقد تمثل هدف الدراسة بتحديد الفكر الاجتماعي للإغريق والرومان من خلال ملاحظة الفكر الاجتماعي لفوستيل دي كولانج. وقد وجدت الباحثة ان دي كولانج كان يتمتع بدقة منهجية في دراسته. وشخصت الباحثة، هذه الدقة من خلال تتبعه لتطور الفكر الاجتماعي الإغريقي والروماني بدأ من مرحلة الأولى التي تمثلت باعتبار الدين أساس ومحور الحياة بجميع مفاصلها وحتى المرحلة الأخيرة من مراحل تطور المدينة العتيقة فيما أصبحت الثروة هي المقياس في تحديد التفصيل الاجتماعي.

كما لاحظت الباحثة إيمان فوستيل دي كولانج بالتغير الاجتماعي، وقد جعل في كل مفردة من مفردات فصول الكتاب إشارة ضمنية يبين فيها اعتقاده بان التغير يحقق درجات من التقدم، إلا انها بطيئة نسبياً لرتابة الحياة انغلاق المدن على نفسها في المراحل الأولى من نشؤها... حتى يكشف ان هناك أربع ثورات حدثت بشكل بطيء وضمن فترات زمنية متباعدة خاصة الثورتين الأولى والثانية قلبت كيان المجتمع وهذه الملاحظة تكشف الحس الاجتماعي لدى كولانج.

ولابد من الإشارة إلى ان الأحداث التي يذكرها دي كولانج قد بدأت من القرن السابع قبل الميلاد واستمرت حتى القرن الثاني قبل الميلاد زمن الثورتين الأولى والثانية، ومن القرن الثالث وحتى القرن الرابع بعد الميلاد زمن الثورتين الثالثة والرابعة.

Abstract

Nadiya S. Mahmood [(*)]

The study had come to appoint the social thinking of Fostel De Kolange. in his book the oldest city, it is a study about the religion beliefs of Greek and roman city.

The aim of study represented by definition the social thinking of Greeks and Romans though observe the social thinking of Fostel De Kolange the researcher found that De Kolange was interested with methodical definitude, the researcher appoint, this definitude through followed the roman and Greek social thinking starting from it's first stage which represented in consider the religion a basic and axis of life with all it's units until the final stage of the oldest development stage on the other hand the fortune became a criteria to define social favored.

Also researcher noticed that belief of Fostel De Kolange with social change, he becomes in every item of the book chapters' items an implicit sign show his thought that change has achieve steps of progress, But it is slow relatively because of routine life related with introvert cities in the essential stages of its origin.. until discovered there are four revolutions done slowly in a long distance times especially first and second revolutions which upside-down the society body this notice shows the social sense of De Kolange.

It should take with a consideration that events which De Kolange talks about had been started from seventh century B.C continues until second century B.C at the era of first and second revolutions, from third century till fourth century at the era of fourth and third revolutions.

(*) College of Arts / University of Mosul.